

## العصفور ذو اللسان المقطوع



كان يا ما كان، في قديم الزمان، رجل طاعن في السن مع زوجته. وكان الرجل العجوز طيب القلب، وعنده عصفور. ولأنه لم يرزق بطفل فقد ربي العصفور بحنان وكأنه طفله.

وفي أحد الأيام أخذ الرجل العجوز سلة وفأساً بيده، وذهب كعادته إلى الجبال للتحطيب. وفي هذه الأثناء بدأت العجوز تغسل الملابس عند البئر.

وبعد أن انهمكت في الغسيل بعض الوقت، اكتشفت أنها تحتاج إلى بعض النشاء، فعادت إلى المطبخ لإحضاره. ولكن ماذا تظنون قد جرى؟ اختفى كل ما صنعتته في ذلك الصباح من نشاء وكان الإناء فارغاً.

قالت: " يا للعجب! يا ترى من سرق النشاء الذي صنّعه بعناية فائقة. أحد الخبثاء على ما أظن! ولكن كيف؟ لم يأت أحد هنا طوال هذه الساعات."

وما أن قالت ذلك وهي حائرة، وأخذت تتلفت حولها، حتى نادى العصفور، القابع في قفص في إحدى زوايا الغرفة: "عم تبحثين يا سيدتي العجوز؟"

أجابت: " لا شيء. ولكني لا أملك إلا التساؤل يا ترى لماذا اختفى النشاء وقد رأيته هنا قبل لحظات."

قال العصفور: "أه! أنا الذي التهم النشاء."

صرخت: "ماذا؟ هل أنت أكلت النشاء؟"

أجاب العصفور: " نعم يا سيدتي، الحق أنني أكلته. لم أكن أعرف أنه مفيد إلى هذه الدرجة. كما لم أعرف أن من الخطأ أكله، لأنه كان في الصحن الذي أتناول طعامي فيه أحياناً. كان ذلك حماقة مني ولكن أرجوك أن تغفري لي حماقتي."

ومع أن العصفور اعترف بخطئه، وألح في طلب الغفران، فقد ازداد غضب المرأة العجوز عليه، وهي التي لم تحبه يوماً، بل كانت على الدوام تعامله معاملة قاسية.

صرخت: "يا لك من مخلوق كريبه. كيف تأكل ما حضّرتَه بعناية فائقة من النشاء؟ سيكون عقابك شديداً!"

وما أن قالت ذلك، حتى أحضرت مقصاً. وعلى الرغم من توسلات العصفور طالباً الرأفة، والدموع تتهمر من عينيه، فقد أخرجته من القفص، وقطعت لسانه بالمقص. وصرخت: "هل كان هذا هو اللسان الذي لعق ما صنعته من نشاء؟ ها أنا الآن قد أخذت بثأري! أخرج من بيتي!"

وفي هذه الأثناء واصل الرجل العجوز عمله في قطع الحطب في الجبل دونما أن تكون لديه أية فكرة عما حدث في البيت. وأخيراً قال لنفسه: "لقد أنجزت عمل اليوم، وسأعود الآن إلى البيت لأسعد مجدداً برؤية عصفوري الصغير العزيز." وصل البيت مع غروب الشمس، وهو متلهف لرؤية العصفور. ولكنه حين نظر إلى القفص لم ير عصفوره الصغير، بل كان القفص فارغاً.



فكر الرجل العجوز أن في الأمر شيئاً غريباً، وسأل زوجته: "أين العصفور."

ولكنها تظاهرت بالبلاهة وبعدم معرفة شيء عنه. وقالت: "لا أعرف أين هو."

فقال الرجل العجوز: "ولكن ألا ترين أنه ليس بالقفص؟" أجابت: "هل هذا صحيح؟ حسناً، أحسب إذن أنه طار إلى مكان ما." قالت ذلك، وحاولت أن تبدو وكأن الأمر لا يعنيها.

صرخ الرجل العجوز، الذي أخذ يزداد هياجاً: "هذا هراء! لماذا يطير عصفور أليف مثله هارباً بلا سبب؟ لابد وأنتك فعلت شيئاً حملة على الطيران هرباً، عندما كنت خارج البيت. والآن قولي بالضبط ماذا فعلت به."

وهنا لم يكن أمام المرأة العجوز سوى قول الحقيقة، فأجابت: "عندما كنت خارج البيت، يا زوجي، التهم العصفور ما حضّرتَه بعناية فائقة من نشاء، فقطعت لسانه وطرده خارج البيت."

وعندما سمع الرجل العجوز ذلك، حزن حزناً لا حدود له. وبكى قائلاً: "آه، أيها المخلوق الصغير المسكين! لم يكن أكثر من طائر، ولم يكن في نيته إيذاء أحد بأكل ما صنّعه من نشاء. وفي الوقت الذي كان بمقدورك أن تغفري له بسهولة، بلغت بك القسوة حد الإقدام على قطع لسانه، وطرده من البيت. لو كنت هنا لما سمحت لك

بمعاقبته هذا العقاب القاسي. لقد جرت هذه الفعلة القاسية لأنني كنت خارج البيت. آي! آي."

بكى الرجل العجوز بمرارة كما لو أنه فقد طفلاً له، عزيزاً عليه. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، انطلق يبحث عن عصفوره الضائع، مهملأ عمله، ومتجاهلاً نصيحة زوجته بعدم الذهاب.

ولما مضى يبحث عن عصفوره الحبيب أخذ ينشد:

"أيها العصفور ذو اللسان المقطوع،

أين أنت؟

أين مأواك؟

أين أنت؟

أيها العصفور ذو اللسان المقطوع،

تشو، تشو، تشو؟"

وبسرعة تعرف العصفور على صوت السيد، الذي رعاه طيلة هذه السنين، وخرج من عش لملاقاته.

هتف العصفور: "أهذا أنت يا سيدي الرجل الطيب العزيز؟ جميل منك أن تأتي للبحث عني."

هتف الرجل العجوز فرحاً: "ها أنت ذا أخيراً. لم أستطع كبح لهفتي عليك، فأتيت أبحث عنك."

قال العصفور بمحبة: "كيف يتسنى لي أن أشكرك بما فيه الكفاية؟ ولكن لماذا أنت واقف في الطريق؟ أرجوك أن تدخل كوخى المتواضع."

قال ذلك، وقاد الرجل العجوز داخل بيته.

كان البيت مصنوعاً من عيدان القصب، شأنه شأن أعشاش العصافير الأخرى. وعلى الرغم من أن الأعمدة والسقف كانت مصنوعة من القصب أيضاً، فقد بدا هذا البيت مرتباً وفسيحاً. قاد العصفور الرجل العجوز وطلب منه أن يدخل الصالون، وشكره مرة أخرى على لطفه في المجيء لزيارته.

قال العصفور: "أحسب أنني أستحق غضبك لالتهامي نشاء سيدتي دون إذن منها، ولكنك لا تلومني بالمرّة، بل تقطع طريقاً طويلاً لرؤيتي. لا أعرف كيف أشكرك بما فيه الكفاية. إن هذه الدموع التي تراها إنما هي دموع الفرح!"

قال الرجل العجوز هازماً يده ذات اليمين وذات الشمال: "كلا، كلا. صحيح أنه لو كان مكاني شخص آخر فإنه كان سيوبخك، ولكنني على العكس، لأنني أحبك أكثر من طفلي، لو كان لدي طفل. لقد عنفت زوجتي لما اقترفته بحقك بطردك من البيت وقطع لسانك لخطأ بسيط مثل أكل النشاء. لم أشعر بسرور أكبر من سروري بالعثور عليك سعيداً هنا."

وكان فرحه الصادق بادياً على وجهه.

كان العصفور حريصاً على أن يدخل ما أمكنه من السرور في قلب السيد الرحيم والكريم، الذي قطع كل هذه المسافة لرؤيته، فقام بالترفيه عنه بوليمة أعدتها عائلته بعناية فائقة. وزيادة في الحفاوة رقصت الطيور أمامه "رقصة العصافير"، المفضلة لديها.

أشاع هذا البهجة في قلب الرجل العجوز، وقال إنه لم يستمتع في حياته الطويلة: بمثل هذه المتعة. وكان سعيداً حتى شعر أنه في الجنة. وفيما كان يستمتع على هذا النحو، أخذ الظلام يزحف شيئاً فشيئاً. وعندما لاحظ الرجل العجوز ذلك، قال: "لقد أدخلت السرور إلى قلبي، حتى أنني أشعر بأنني أصبحت أصغر من عمري عشر سنوات. ولكن علي الآن أن أقول وداعاً، لأن الشمس تكاد تغيب."

لكن العصفور لم يدعه يذهب، وقال: "لماذا كل هذه العجلة؟ ألا تستطيع البقاء هذه الليلة إذا كان الظلام يمنعك من الذهاب إلى البيت؟ سيكون من دواعي سرورنا البالغ أن تبقى أياماً في بيتنا المتواضع هذا. فحتى الآن كنت دائماً محاطاً برعايتك الحنون ولا أظن أنني سأرد ذات يوم مثقال ذرة من جميل رعايتك بالترفيه عنك يوماً أو يومين. أرجوك، هلا بقيت؟"

أجاب الرجل العجوز: "كلا، شكراً جزيلاً على كرمك، ولكن علي أن أعود اليوم، إذ يجب ألا أغيب طويلاً عن البيت. سأزورك كثيراً"

في المستقبل، وأرجو أن تريني يومها رقصة مسلية مثل تلك التي رأيتها اليوم."

قال العصفور: "أحقاً يجب أن تذهب؟ كم أتمنى لو أستطيع إبقاءك! ولكن إذا كان لا بد من ذهابك فأرجوك أن تنتظر دقيقة."

جاء العصفور بسلتين مصنوعتين من الخيزران، وأضاف قائلاً: "إني حقا لا أريدك أن تذهب، أيها السيد العزيز، فأنا بعد رحلتك الطويلة لم أحتف بك الحفاوة التي تثبت امتناني لك بشكل كامل. والآن، هاتان سلتان مصنوعتان من الخيزران، واحدة ثقيلة والأخرى خفيفة، خذ أيهما تشاء إلى البيت كهدية."

قال الرجل العجوز: "هدية؟ كلا، لا أستطيع أن أكون وضيعاً بحيث آخذ معي هدية إلى البيت بعد ما قضيتَه من وقت ممتع. ومع ذلك ينبغي عدم الاستخفاف بما تعرضه، ولذلك سأخذ معي إحدى السلتين."

سأل العصفور: "هلا أخذت السلة الثقيلة؟"

أجاب الرجل العجوز: "كلا، كلا. إني رجل عجوز، ولا أستطيع أن أحمل معي حملاً ثقيلاً. إن السلة الخفيفة ستكون كافية."

قال العصفور: "إذن، تفضل وخذ السلة الخفيفة."

وضع الرجل العجوز السلة الخفيفة على كتفه، بمساعدة العصفور، وخرج. لكنه توقف في الباب مع الطيور العديدة، التي جاءت لتوديعه.



قال الرجل العجوز: "إني أنتظر عودتك قريباً. الوداع! انتبه إلى نفسك في الطريق."

وهكذا انطلق الرجل العجوز متلفطاً إلى الوراء بين الحين والآخر. فيما كان العصفور يراقبه يصغر ويصغر حتى غاب عن الأنظار، لقد افترقا وكان الفراق صعباً!

لنعد الآن ونرَ ماذا بشأن المرأة العجوز. لقد بقيت في البيت وحيدة، طوال اليوم. وأخذت تشعر بالتعب من طول الانتظار، إلى حين عودة زوجها.

تمتت متبرمة: "أحسب أن زوجي يبحث عن ذلك العصفور الخبيث. لا أستطيع أن أفهم لماذا يفعل ذلك."



قالت ذلك وذهبت إلى الباب، حيث وقفت تنتظر عودة زوجها.  
وبعد حين جاء الرجل العجوز وهو يحمل سلة الخيزران على ظهره.  
سألت زوجته العجوز، غاضبة: "كيف تتأخر إلى هذا الوقت؟"  
قال الزوج، ماسحاً العرق، وواضعاً حمله على الأرض: "آه، لا  
تقرعيني. لقد أمضيت وقتاً رائعاً في بيت العصفور، وجئت بهدية أيضاً.  
فلقد أعطاني العصفور سلتين أختار واحدة منهما، واحدة ثقيلة والأخرى  
خفيفة. فاخترت الخفيفة عوضاً عن الثقيلة التي فكرت أنها ستكون  
عبئاً لا أستطيع حمله. افتحيها و انظري ماذا بداخلها."  
قالت المرأة العجوز، وقد انفرجت أساريرها فجأة: "إذن لقد أمضيت  
وقتاً ممتعاً. لنرى ماذا بداخلها."  
وبدون أن تكلف نفسها تقديم فنجان من الشاي إلى الرجل العجوز  
المتعب، سارعت إلى رفع غطاء السلة، وفتحتها.  
وماذا تعتقدون أنهما رأيا هناك؟

ملابس جميلة، وكنوزاً ثمينة، ناهيكم عن الذهب والفضة  
والأحجار الكريمة!  
وعندما رأى الرجل العجوز هذه الأشياء، بدأ يرقص فرحاً "رقصة  
العصفور" التي شاهدها ذلك اليوم.  
ولكن المرأة العجوز قطبت جبينها وقالت: "يا لك من معنوه! لماذا لم  
تجلب السلة الثقيلة؟ إنك أبله؟"  
قال الرجل العجوز: "كيف تقولين ذلك؟ أليست هذه كافية؟ إنك  
شديدة الطمع يا زوجتي."  
- "ولكنك كنت شديد الغباء إذ أخذت السلة الخفيفة وكنت  
تستطيع أخذ السلة الثقيلة. حسناً، سأذهب الآن وأجلب السلة الثقيلة."  
قالت ذلك ونهضت متأهبة للذهاب.  
صاح الرجل العجوز: "قفي! قفي! لا فائدة من ذلك."  
حاول منعها من الذهاب، ولكن المرأة العجوز لم تأبه بكلماته،  
وشمرت عن ساعديها وأخذت عصا الرجل العجوز، وانطلقت في  
سبيلها.  
وفيما كانت تسير مسرعة أخذت تعيد الأغنية التي أنشدها الرجل  
العجوز:  
"أيها العصفور ذو اللسان المقطوع،  
أين أنت؟"

أين مأواك؟

تشو، تشو، تشو.

وفي هذه الأثناء كان بيت العصفور قد أغلق بعد مغادرة الرجل العجوز، وكان أفراد العائلة يتحدثون فيما بينهم عن الرجل وزوجته. قال العصفور ذو اللسان المقطوع: "إنه حقاً رجل طيب. أتساءل كيف سنحتفي به المرة القادمة. كم تختلف عنه زوجته اللئيمة! إنها شديدة القسوة لأنها طردتني خارج البيت مقطوع اللسان بسبب هفوة بسيطة مثل لعق النشاء."

وفي تلك اللحظة سُمع طرق على الباب وصوت ينادي عاطساً (يقال أن الناس يعطسون حين يفتابهم الآخرون): "هل هذا بيت العصفور ذي اللسان المقطوع؟"

وحين ذهب ليرى من الطارق، وجد المرأة العجوز التي قطعت لسانه واقفة في الباب.

وكما يقول المثل: "تحدث عن الملاك، وستسمع حفيف أجنحته." أو كما يقول المثل الشعبي الآخر: "ذكرنا القط، قام ينط!"

وحين رآها العصفور، شعر، رغم غضبه بسبب قطعها لسانه، أنه ينبغي أن يكون ممتناً لها وهي التي كانت سيدهته زمناً طويلاً. فهتف: "أهلاً، أهلاً، أيتها السيدة العزيزة. تفضلي."

وكان على وشك أن يقودها داخل البيت حين أوقفته المرأة العجوز  
قائلة: "أرجوك، لا تزعج نفسك لأنني في عجلة من أمري ويجب أن أذهب  
في الحال."

قال العصفور: "ولكن، ألا تدخلين وتستريحين قليلاً؟ فلقد جئت  
من مكان بعيد."

قالت المرأة العجوز: "كلا، شكراً. علي أن أعود في الحال، فلا  
تزعج نفسك بعشاء أو برقصة العصفور، بل سأخذ معي عوضاً عن ذلك  
هدية إلى البيت."

قال العصفور: "حسناً، ولكن يؤسفني أن السلة الثقيلة هي كل ما  
تبقى لأن زوجك أخذ السلة الخفيفة."

قالت المرأة العجوز: "لا ضير. إنني أصغر سنناً وأقوى من زوجي  
بكثير، وأفضل حمل السلة الثقيلة. فأرجوك أن تحضرها في الحال."  
قال العصفور: "حسناً، سأحضرها."

وجاء على الفور بسلة كبيرة من الخيزران، بدت ثقيلة للغاية.  
أخذت المرأة العجوز الهدية، ووضعتها على ظهرها بكثير من  
التأوه: "آه، آه!" ثم غادرت دون أن تشكره بشكل لائق، مكتفية  
بالقول: "هذا كل شيء. الوداع."

كانت هذه السلة أثقل مرتين من الحجر الكبير الذي كان  
يستخدم كثقل للضغط على المخلل الذي تصنعه في بيتها. لذا كانت

شديدة الاستغراب من ثقل وزنها. وأخذ العرق يتصبب من وجهها، في قطرات كبيرة. وكانت في مسيرها تننّ من الألم.

ولكن قلبها كان عامراً بالأمل في أن تجد كنزاً عظيماً داخل هذه السلة الثقيلة. وهذا ما جعلها تسيّر بكل ما لديها من طاقة. ولكن رغم ذلك أخذ عبء حملها يزيد عن طاقتها، وكانت رغبتها في رؤية محتويات السلة لا تقاوم. فلم تستطع الانتظار حتى الوصول إلى البيت، بل قررت فتحها في الطريق. فوضعت السلة أرضاً، على قارعة الطريق، ورفعت الغطاء.

وماذا تعتقدون أنها وجدت هناك؟ ليس كنزاً وإنما وحشاً ذا ثلاث عيون وشفداً عملاقاً وأفعى سامة وبعض اليرقات والحشرات الكريهة مثل السرعون وغيرها من الزواحف المخيفة والمخلوقات اللزجة التي كانت تتقلب داخل السلة.

أصيبت المرأة العجوز بالذعر، وخارت ركبتيها، فسقطت على الأرض صارخة من شدة الفزع. وحين سمعت هذه المخلوقات المرعبة صراخها رفعت رؤوسها بهدوء. فزحفت الأفعى أولاً خارج السلة ولفت نفسها حول يدي العجوز وقدميها. ثم بدأ الضفدع يلحق وجنتيها.

كانت المرأة العجوز مرعوبة، وأخذت تصرخ وتصرخ، طالبة النجدة. وأخيراً تمكنت من الهرب. وقد سقطت مرات عديدة طول الطريق إلى البيت.

وعندما روت لزوجها ما جرى لم يستغرب ذلك، بل قال: " ألم أقل  
لك أن لا تكوني جشعة؟ لقد عوقبت عقاباً عادلاً!"  
وشياً فشيئاً، جعلها تعترف بخطيئتها، وتعلن توبتها. وتمضي  
الحكاية إلى أن المرأة العجوز أصبحت بعد ذلك طيبة القلب، شأنها  
شأن زوجها. الأمر الذي نحمد الله عليه ونشكره.

